أد/فاطمة سوالمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

عنوان المداخلة

فلسطين في فكر البشير الإبراهيمي

– بين البعد الديني والالتزام القومي–

الملخص

تتناول هذه المداخلة فلسطين في فكر البشير الإبراهيمي بوصفه أحد رواد الفكر الإصلاحي في الجزائر خلال النصف الأول من القرن العشرين. وتهدف إلى الكشف عن المرجعيات المعرفية التي شكلت البنية الفكرية المؤطرة لمواقفه ورؤيته تجاه القضية الفلسطينية، وذلك عبر استجلاء تصوره لفلسطين باعتبارها فضاء مقدسا تتجاوز دلالته حدود الجغرافيا لتؤسس لوعي ديني وحضاري شامل جعل من نصرتها واجبا شرعيا ومكونا أساسيا في خطابه الإصلاحي.

Palestine in the Thought of al-Bashir al-Ibrahimi: Between the Religious Dimension and National Commitment

Abstract

intervention addresses Palestine in the thought of al-Bashir al-Ibrahimi, as one of the leading figures of reformist thought in Algeria during the first half of the twentieth century. It seeks to uncover the epistemological

foundations that shaped the intellectual structure framing his positions and perspectives on the Palestinian cause. This is done by examining his conception of Palestine as a sacred space whose significance transcends geographical boundaries, thereby establishing a comprehensive religious and civilizational awareness that made its support a religious obligation and a central component of his reformist discourse.

المداخلة:

شكلت قضية فلسطين حالة استثنائية في اهتمامات علماء الفكر الإصلاحي في الجزائر نظرا لخصوصيتها الدينية والقومية والإنسانية، ما استوجب مساندتها والدفاع عنها ضد مشروع الهيمنة الصهيونية الذي يريد شرعنة الاحتلال والاستيطان وتغيير هوية المكان يتكئ على سردية استعمارية مهترئة كشف التاريخ زيفها وتناقضاتها. فكان الشيخ البشير الإبراهيمي من أوائل من تصدوا للكيان الصهيوني الغاصب عبر توظيف الفكر والقلم كأدوات مقاومة لكشف الحقيقة ونشر الوعي بين جماهير الأمة العربية والإسلامية.

تعامل البشير الإبراهيمي مع قضية فلسطين وفق منظور متكامل يتداخل فيه البعد الروحي المستند إلى المرجعية الدينية التي ترى في فلسطين الجغرافيا الدينية المقدسة العليا كونها تضم المسجد الأقصى والمبارك مسرى نبينا الكريم ومعراجه، والبعد القومي الذي يرى في فلسطين قلب الأمة العربية النابض وقضيتها المركزية التي يتطلع من خلالها إلى سياسي يوحد جهود النخبة ويعيد تشكيل الوعي الجماعي حول قضايا الأمة المصيرية متجاوزا بذلك حدود الجغرافيا والمكان.

انطلاقا من هذا الطرح:

إلى أي مدى شكلت قضية فلسطين محورا مركزيا في فكر البشير الإبراهيمي؟

وكيف تداخل البعد الديني مع الالتزام القومي في فهمه للقضية الفلسطينية؟

وكيف ساهمت كتابات الإبراهيمي في تشكيل وعي جماهيري عربي وإسلامي بقضية فلسطين؟

أولا: التعريف بالشيخ البشير الإبراهيمي

يعد الشيخ البشير الإبراهيمي من أبرز رجال الفكر الإصلاحي في الجزائر خلال النصف الأول من القرن العشرين، الذي تجاوز اهتمامه مأساة شعبه المثقل بوطأة القمع الاستعماري ليجعل من القضية الفلسطينية ركنا أصيلا في خطابه الإصلاحي ومشروعه النهضوي لما تنطوي عليه من أبعاد دينية وسياسية وإنسانية متداخلة جعلت منها القضية المحورية للأمة الإسلامية التي تجسدت فيها وحدة الشعوب العربية والإسلامية في مواجهة التحديات الصهيونية الاستعمارية مغالبة بذلك كل معوقات النزعات القطرية.

هو محمد البشير بن محمد السعدي بن عمر بن محمد السعدي بن عبد الله بن عمر الإبراهيمي كتب البشير الإبراهيمي عن نفسه قائلا: "أنا محمد البشير الإبراهيمي ولدت يوم الخميس عند طلوع الشمس في الثالث عشر من شهر شوال سنة ست وثلاثمائة وألف هجرية يوافق الرابع عشر من يونيو سنة 1889 ميلادية، كما رأيت ذلك مسجلا بخط جدي لأبي الشيخ عمر الإبراهيمي رحمه الله في سجل أعده لتسجيل مواليد الأسرة ووفياتها، قبيلتنا تعرف بأولاد إبراهيم بن يحي بن مساهل ويرفع نسبها إلى إدريس بن عبد الله الجد الأول للأشراف الأدارسة"[1] ولد بقرية أولاد سيدي إبراهيم من نواحي سطيف تابعة حاليا لولاية برج بوعريريج.

نشأ وتربى في أسرة علم وصلاح وتقوى، تلقى علومه الأولى على يد عمه، حيث يقول:

1- محمد البشير الإبراهيمي، في قلب المعركة، تصدير أبو القاسم سعد الله، ط1، الجزائر، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، 1994م، ص89

"نشأت على ما نشأ عليه أبناء البيوتات العلمية الريفية من طرائق الحياة، وهي تقوم دائما على البساطة في المعيشة والطهارة في السلوك والمتانة في الأخلاق، حيث قام على تربيتي وتعليمي من يوم درجت عمي شقيق والدي الأصغر الشيخ محمد مكي الإبراهيمي عالم إقليمنا المعروف بوطن ريغة وفريد عصره في إتقان في إتقان علوم اللسان العربي"[2]

وكعادة علماء عصره في طلب العلم، سافر البشير الإبراهيمي إلى المدينة المنورة متوقفا بالقاهرة التي أقام بها ثلاثة أشهر التقى خلالها بمجموعة من العلماء أمثال الشيخ سليم البشري، والشيخ محمد بخيت، والشيخ السمالوطي، كما حضر مجموعة من الدروس في دار الدعوة والإرشاد، ثم واصل مسيره قاصدا المدينة المنورة التي مكث فيها ست سنوات مكنته من الاحتكاك بكبار علمائها الذين أنارو فكره ووسعوا مداركه، كما التقى بالشيخ عبد الحميد بن باديس لأول مرة في موسم الحج لعام 1913م، فكان لقاء تعارف وتواصل أعقبته لقاءات أخرى أسست لعلاقات فكرية وعلمية كان لها بالغ الأثر في مسار النهضة الإصلاحية في الجزائر[3].

عند عودته إلى الجزائر سنة 1920م شارك إلى جانب ثلة من النخب الفكرية الجزائرية أمثال الشيخ عبد الحميد بن باديس والطيب العقبي والشيخ مبارك الميلي والشيخ العربي التبسي والشيخ محمد خير الدين والشيخ السعيد الزاهري في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين 1931م [(4)]. هؤلاء الكرام وغيرهم أسهموا في إيجاد حراك فكري واسع عبر تآليفهم العلمية ونشاطهم التعليمي والدعوي قصد التجديد والإصلاح والسعي نحو بناء إنسان رفيع الوعي

---

2 –محمد البشير الإبراهيمي، في قلب المعركة، مصدر سابق، ص962

3 –المرجع نفسه، ص93

4 –عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة، الجزائر، 1982، الجزء الرابع، ص 51–55.

–أبو يعلى الزواوي، تراجم جزائرية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985، ص 241–244

لمتطلبات الأمة وحاجياتها في تلك الحقبة الزمنية.

وافته المنية وهو في السادسة والسبعين من عمره (في يوم الخميس 19 محرم سنة 1938هـ/19 ماي 1965م)، بعد مسيرة علمية وفكرية حافلة بالبذل والعطاء، شيع في موكب مهيب حضره جمع غفير من الناس الذين جاءوا من كل أنحاء البلاد. وكان ممن حضر جنازته رئيس الدولة الراحل هواري بومدين.[5]

ثانيا: ملمح عن القضية الفلسطينية

منذ أواخر القرن التاسع عشر، بدأت فلسطين تحتل مركز اهتمام الشعوب العربية والإسلامية خاصة مع صدور وعد بلفور سنة1917م الذي منحت بموجبه الحكومة البريطانية الحق لليهود في إنشاء وطن قومي يجمع شتاتهم في فلسطين بوصفه التجسيد المادي للمشروع الصهيوني المدعوم من القوى الاستعمارية الغربية متجاهلين بذلك لتواجدهم على أرضهم ولجذورهم الضاربة في عمق تاريخ هذا الوطن. لتبدأ بعدها فصول متعاقبة لمعاناة شعب واجه سياسة القمع والاضطهاد والتشريد الممنهجة في سردية تاريخية تعكس ملامح ظلم بنيوي امتد عبر العصور.

وإزاء هذا الوضع أخذ الفلسطينيون يلتمسون طريق الخلاص من الاحتلال الأجنبي التي تجسدت في ثورات وانتفاضات متعاقبة أبرزها ثورة البراق سنة 1929، ثم الثورة الكبرى عام 1936 التي استمرت حتى 1939.

وفي خضم تلك الأحداث برزت القضية الفلسطينية كأحد أبرز رموز الظلم الاستعماري والتواطؤ الدولي، ما جعلها محورًا أساسيًا في الخطاب الإصلاحي العربي والإسلامي.

5-الطاهر فضلاء، الإمام الرائد الشيخ البشير الإبراهيمي في ذكراه الأولى ، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1967م، ص655

ثالثا: البعد الديني لفلسطين في وعي البشير الإبراهيمي:

يمكن تلخيصه في ثلاثة مستويات أساسية:

1- قدسية المكان:

يتجلى البعد الديني في موقف البشير الإبراهيمي من قضية فلسطين في تمثله الواعي لقدسية المكان وإحاطته الشاملة بدلالته الدينية حيث يقول: " إنّ فلسطين وَديعة محمّد عندنا، وأمانة عمر في ذمّتنا، وعهد الإسلام في أعناقنا، فلئن أخذها اليهود ونحن عصبة إنّا إذا لخاسرون"[6]

إن اعتبارة فلسطين وديعة محمد يفضي إلى مجموعة من الدلالات، إذ تشير:

أولا إلى المكانة المركزية لفلسطين في الوجدان العربي الإسلامي بوصفها موطنا لمقدسات إسلامية ففيها مسرى نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم في حادثة الإسراء والمعرج ومنها عرج إلى السماوات العلا. وفيها المسجد الأقصى قبلة المسلمين الأولى كما جاء عن البراء رضي الله عنه: أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً .. [7] أنه من المساجد التي تُشد الرحال إليها عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم والمسجد الأقصى " رواه البخاري مما يمنحها بعدا روحيا يستند لمرجعية شرعية ترسخ الهوية الجماعية للأمة الإسلامية، وتؤكد على وجوب الحفاظ على مضامينها وعلى رابطة الجسد الواحد في نفوس أبنائها.

6-محمد البشير الإبراهيمي، آثار البشير الإبراهيمي، تقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997م، ج3، ص445.

7 -البخاري، صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب ماجاء في القبلة، رقم41

-مسلم، صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحويل القبلة، رقم 525.

ثانيا: يضع الابراهيمي عبر هذا الوصف الإنسان المسلم في مواجهة مع الذات ليوقظ فيه الشعور بالمسؤولية التاريخية والأخلاقية تجاه قضية فلسطين، ويذكره في الوقت نفسه بأن التخلي عن هذا الو اجب يعد خيانة للأمانة وخذلانا للأمة.

2- الدفاع عن فلسطين واجب شرعي

يرى الإبراهيمي أن نصرة فلسطين فرض عين على كل مسلم بقدر استطاعته وجب على كل مسلم العمل على تحقيقه بكل الوسائل المشروعة وقد عبر عن هذا بقوله: "إعانة فلسطين فريضة مؤكدة على كل عربي وعلى كل مسلم، ومن لم يؤده فهو دين في ذمته لا يبرأ منه" [8] مستندا في ذلك إلى مبدأ الدفاع عن النفس، ومبدأ رد العدوان والدفاع عن دار السلام ، لذلك وجب على جميع المسلمين في سائر أقطارهم، وليس على أهل فلسطين فقط.

و جعل من عبارة "إعانة فلسطين"عنوانا لكل صنوف الدعم المادي والمعنوي الذي يتعين على المسلمين تقديمه لها، وكان الإبراهيمي من أوائل الداعمين للقضية حيث جمع بين الدعم الفكري من خلال خطبه ومقالاته ومواقفه الرامية إلى استنهاض الهمم وإيقاظ الوعي بقضية فلسطين لتكون حاضرة في ضمير الأمة، بأسلوب مؤثر يلامس القلوب ومشاعر صادقة تعكس عمق الألم والأسى الذي يعتصر قلبه من أجل فلسطين كما هو الحال في مقاله المعنون ب"فاجعة فلسطين"

والدعم المادي الذي تجلى في التبرع بمكتبته الخاصة وبيع محتوياتها لصالح نصرة فلسطين [9]

أما قول الإبراهيمي: "فريضة مؤكدة" فهي تعكس قناعته الراسخة أن نصرة فلسطين هي التزام ديني وواجب شرعي يفرضه الدين لا مجال فيه للرأي والاختيار، بل هو ضرورة حتمية تتجاوز حدود الإرادة الشخصية.

8- البشير الإبراهيمي، الآثار، مصدر سابق، ج2، ص206.

9-المصدر نفسه، ج3، ص459.

3-الصهيونية خطر ديني وحضاري:

لم يتعامل الإبراهيمي مع المشروع الصهيوني باعتباره احتلالا سياسيا فقط بل رآه : عدوانا على أرض مقدسة وتهديدا لجوهر الرسالة الإسلامية-ومحاولة لاقتلاع الوجود العربي الإسلامي من إحدى أهم بقاعه الرمزية، حيث يقول: "وما الصهيونية إلا ابنة الاستعمار، وما فلسطين إلا ميدان لحربه على الإسلام"[10]

في هذا القول يكشف الإبراهيمي عن الصلة الوثيقة بين الاستعمار والصهيونية ويوضح سعيهما المشترك للسيطرة على فلسطين التي غدت ميدانا لصراع حضاري بين الإسلام بوصفه نظام حياة ومنهج سلوك، وبين الحضارة الغربية التي تريد فرض نموذجها القيمي والحضاري على شعوب المنطقة، مما يعكس وعيه العميق بالدين والسياسة والتاريخ.

رابعا: البعد القومي للقضية الفلسطينية عند البشير الإبراهيمي

يقول الإبراهيمي: "إن فلسطين ليست لفلسطين وحدها، ولكنها لكل العرب، لأن العرب كلهم فيها، ولأن جرحها جرحهم"، يتجلى البعد القومي لفلسطين عند الإبراهيمي في اعتبارها قضية أمة بأسرها متجاوزا بذلك حدود وعوائق القطريات الضيقة حيث يقول: إن الأمة العربية جسم واحد فإذا ضرب قلبها في قلسطين تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى"[11]، منطلقا بذلك من مفهوم الجسد الواحد الذي يؤسس لرؤية قومية شاملة ترى في الاعتداء على فلسطين خرقا صارما للكرامة العربية ومعيقا لأي أمكانية للوحدة العربية.

كما نلمس البعد القومي في مواجهة المشروع الصهيوني الذي ينظر إلى فلسطين على أنها البداية ومرتكز الانطلاق لأهداف أوسع وأشمل، فهو يهدف إلى تأسيس الوطن القومي اليهودي الذي

10-البشير الإبراهيمي، الآثار، مصدر سابق، ج4، ص252.

11-البشير الإبراهيمي، الآثار، مصدر سالق، ج4، ص234.

تمتد حدوده من النيل إلى الفرات، فلا خطر يهدد سلامة الأمة ووحدتها واستقلالها أكثر من خطر احتلال فلسطين واقتطاعها من قلب الأمة، ولهذا قرر أن "الصهيونية شر على العرب كلهم، فإذا تمكنت في فلسطين امتدت إلى ما حولها"، فهي شر يستهدف الأمة العربية في وجودها ووحدتها.

خاتمة

يعد البشير الإبراهيمي من المفكرين الفاعلين الذين تعاملوا مع قضية فلسطين من منطلق رؤية دينية وقومية تعكس وعيه العميق بأبعاد القضية ودلالتها المصيرية، مستغلا مكانته المعرفية والدينية لتعزيز الوعي الديني والانتماء القومي لدى الشعوب العربية والإسلامية.

النتائج:

1. فلسطين مسألة عقدية لقداستها التي اشتقتها من ارتباطها بالنبوة والمعراج، مما يجعل الدفاع عنها فريضة شرعية مؤكدة.
2. الموقف من قضية فلسطين هو معيار لصدق إيمان المسلم
3. نصرة فلسطين يدخل في باب الجهاد، وهو فرض عين
4. يؤكد الإبراهيمي أن فلسطين ليست قضية محلية بل قضية قومية تخص الأمة العربية مما يستدعي نصرتها والدفاع عنها انطلاقا من مفهوم الجسد الواحد.
5. الصهيونية خطر قومي شامل، وهي امتداد للاستعمار الغربي الذي يهدف إلى تفتيت العالم العربي وأن فلسطين هي المدخل التي ولجت منه الحركة الصهيونية والاستعمار الغربي لضرب الأمة العربية وطموحاتها نحو التقدم والوحدة.

قائمة المصادر والمراجع

1. محمد البشير الإبراهيمي، في قلب المعركة، تصدير أبو القاسم سعد الله، ط1، الجزائر، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، 1994م

2. محمد البشير الإبراهيمي، في قلب المعركة

3. عبد الرحمن الجيلالي، *تاريخ الجزائر العام*، دار الثقافة، الجزائر، 1982، الجزء الرابع

4. أبو يعلى الزواوي، *تراجم جزائرية*، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985

5. الطاهر فضلاء، الإمام الرائد الشيخ البشير الإبراهيمي في ذكراه الأولى ، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1967م

6. محمد البشير الإبراهيمي، آثار البشير الإبراهيمي، تقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997م، ج3

7. البخاري، صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب ماجاء في القبلة، رقم41

8. مسلم، صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحويل القبلة، رقم 525.

9. البشير الإبراهيمي، الآثار، ج4